السّفير الأعظم

obeikandl.com

obeikandl.com

السفير الأعظم

اتيح لي في سنة ١٩٢٩ أن أتشرف بمرافقة الملك فؤاد في زيارته الرسمية لألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا وأن أشاهد عن كثب المقام الجديد الذي بناه جلالته لمصر الناهضة في بلدان أوربا فأسدى إلى بلاده وشعبه خدمة لا تسديها إليها السفارات والمفوضيات فى خلال حقبة طويلة من الزمان

ولم تكن مهمة جلالته في ألمانيا مهمة سهلة فقد كانت زيارة الملك أمان الله لألمانيا وبالا على الشرق والشرقيين لأسباب شتى أهمها ثلاثة أما أولها فانه ما كاد جلالته يعود إلى بلاده حتى اندلعت فيها نار الثورة وجرت في أذيالها الحوادث المعروفة . والسبب الثاني هو أن المصانع والمعامل الألمانية أهدت إليه هدايا فاخرة ثمينة رغبة منها في أن تكون إعلاناً ناطقاً بارتقاء الصناعة الألمانية في البلاد الأفغانية فخاب أملها وذهبت الهدايا سدى . ثم يجيء السبب الثالث وله بعض الصلة بالسبب الثاني وهو أن الملك أمان الله أوصى « بطلبات » منوعة فى تلك المصانع والمعامل فضاعت هذه الطلبات على أصحابها بضياع العرش من جلالته . تضاف إلى ذلك أسباب اجتماعية وأدبية اخرى نضرب صفحاً عن سردها . ولكي يقدر القارىء مدى الوقع السيء الذي تركته زيارة أمان الله لألمانيا يكفيني أن أورد حادثاً بسيطاً على سبيل المثال فإن الدكتور وايزل الصحافي الألماني المعروف في مصر دعاني عقب وصولي إلى برلين إلى زيارة إدارة جرائده لأشاهد

مكاتبها ونظامها وهناك عرفني جنابه برئيس تحرير قسم المقالات السياسية فدار الحديث بيننا على زيارة الملك فؤاد للجمهورية الألمانية فقال رئيس التحرير : إن ملككم يصل إلى برلين غداً وقد كان بودي أن أكتب عنه أكثر مما فعلت ولكنني لا أستطيع حتى إنني اضطررت إلى حذف بعض التفاصيل التي كتبها الدكتور وايزل عن جلالته ، فسألته عن علة ذلك ، فأجابني بقوله : «إن الشعب غيرمستعد لقبول مقالات مطولة في هذا الصدد بسبب نفوره من الملك أمان الله»

تلك كانت حقيقة الموقف فى ألمانيا قبيل وصول جلالة الملك فؤاد إليها وتجلت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها عند استقبال جلالته في برلين في اليوم الأول من أيام الزيارة الرسمية فإن الشعب مع خروجه لمشاهدة الموكب الملكي — مع أنه لم يكن يوم عيد أو عطلة رسمية — ظل محتفظاً بشيء من التحفظ في حفاوته وحماسته وكنا نحن الذين أتيح لهم الوصول إلى برلين قبل جلالة الملك بأيام محيطين بدقة الظروف التي سيواجهها جلالته عارفين بصعوبة المهمة التي سيتعين عليه النهوض بها فبقنا نرقب عن كثب باهتمام كبير حركة التحول الذي أحدثه مليكنا المعظم في نفوس الشعب الألماني مقدرين المجهود الذي بذله في هذا السبيل لنزيل ما علق بأذهان الألمان عن بلاد الشرق وملوكها وشعوبها

ولم يكن جلالة الملك فؤاد في حاجة إلى زمان طويل ليبرهن الألمان على أن ملك مصر ليس كالملك الذي عرفوه وأن مصر ليست شطراً من مجاهل إفريقيا النائية كما كانوا يتوهمون فإنه عرف بحركاته وتصرفاته وأحاديثه الاجتماعية والسياسية والأدبية ورقته ودماثة خلقه وإجادته لأشهر اللغات الأوربية وسعة اطلاعه وصفاء حافظته في سرد ذكرياته ونتائج اختباراته — إن جلالته عرف بكل ذلك كيف يكتسب احترام جميع الذين اقتربوا منه وحادثوه أو أصغوا إلى

أحاديثه فغدوا يروون لأهلهم وأصدقائهم ماشاهدوه عن رقي ملك مصر وما أنسوه فيه من علم غزير وأدب وافر واطلاع واسع وانتشر هذا الحكم بين طبقات الشعب فرددت الصحف صداه فرحة مبتهجة وما أصبح صباح اليوم التالي حتى كانت الشوارع التي سيجتازها الموكب الملكي مكتظة بالجماهير فما كادت أبصارها تقع على جلالة الملك حتى هتفت له هتافاً شديداً فشعرنا في الحال بمبلغ الفرق العظيم بين موقفها في اليوم السابق وموقفها اليوم وكان طبيعياً أن ترقص قلوبنا فرحاً وسروراً بهذه المكانة الرفيعة التي عادت بلاد الشرق إلى تسنمها بفعل سفير مصر الأعظم

وكلما انقضت على جلالة الملك ساعة فى ألمانيا كان يزداد عدد المعجبين به وتعظم حماسة الشعب له فما انتهت الحفلة الساهرة التي أحياها الرئيس هندنبرج لجلالته والحفلة الساهرة التي أقامها جلالته للرئيس هندنبرج حتى كان الجميع يسمون مليكنا « هرتز كونيج » أى « ملك الفؤاد » دلالة على ما كان لرقيه وعلمه ولطفه من الوقع العظيم في نفوسهم

✲ ✲ ✲

أمّا الموقف في تشكوسلوفاكيا فكان يختلف عنه في ألمانيا بمظهره لا بمخبره أي أن الملك أمان الله لم يكن قد زار تلك الجمهورية الفتية فيحدث فيها ما حدث في ألمانيا بل إن الملك فؤاداً كان أول ملك يزور تشكوسلوفاكيا بعد إعلان استقلالها ولكن حيث إن جلالته هو أول ملك يزور بلادها بات الموقف دقيقاً كذلك نظراً لما يكنه الشعب التشكوسلوفاكي من البغض والكراهية لأباطرة النمسا ولم تكن مظاهر الحفاوة والتكريم التي أعدتها الحكومة لتحوّل روح الشعب وشعوره لو لم يعرف جلالة الملك كيف يحولها بنفسه من اليوم الأول لوصوله إلى براغ كما فعل في برلين فإن الشعب التشكوسلوفاكي لما أبصر أن الملك الشرقي الزائر يعادل ملوك الغرب برقيه وحسن تصرفه ويمتاز عن بعض منهم بعلمه ورقة

جانبه عطف عليه عطفاً عظيماً وازداد هذا العطف كثيراً حين اتصل بمسامعه نبأ المبرة الملكية لفقراء مدينة براغ فما كاد جلالته يخرج من دار البلدية في ذلك اليوم حتى قابلته الجماهير المحتشدة في الشوارع بأشد مظاهر الهتاف والتصفيق

* * *

وكانت الظروف التي واجهت زيارة الملك فؤاد لسويسرا مماثلة للظروف التي قلت إنها كانت قائمة في ألمانيا ولكن السويسريين المقيمين فى مصر من الذين كانوا يصطافون فى أوربا عنوا بتلافي الأمر بهمة ونشاط عظيمين ساردين لمواطنيهم وولاة أمورهم ما يلقاه الأجانب فى مصر من عطف جلالة الملك وحسن معاملة الشعب والحكومة مؤكدين لهم أن الملك فؤاداً سيمحو الصورة التي رسموها في أذهانهم لملوك الشرق وشعوبها وقد تحقق ذلك فعلا حتى أنه لما زار الملك مدينة زوريخ ليشاهد مصانعها ومعاملها كان العمال يلوحون له بمناديلهم من القطرات ويهتفون له فى الشوارع والساحات مما حمل أحد رجال الحكومة السويسرية على أن قال : « ومن يصدق عند ما يرى هؤلاء العمال يحتفون بالملك فؤاد هذه الحفاوة الشعبية العظيمة أننا فى منطقة اشتراكية »

* * *

و « طون » بلدة صغيرة جميلة تبعد عشرين دقيقة بسكة الحديد عن مدينة « برن » عاصمة سويسرا وقد اشتهرت بالبحيرة المترامية الأطراف الملاصقة لها وهى البحيرة الصافية الماء المعروفة « ببحيرة طون » ففي اليوم التالي لوصول الملك فؤاد إلى سويسرا دعاه المسيو هاب رئيس الاتحادالسويسري إلى نزهة في تلك البحيرة ودعا إليها معه كبار رجال الحاشية الملكية

ويجدر بنا قبل ذلك أن نذكر أن المسيو هاب رئيس الاتحاد السويسري يومئذ كان مديراً لمصلحة سكة الحديد في سويسرا قبل أن ينتخب لمنصب الرئاسة

جلالة الملك فؤاد الأول فى أوربا

الرفيع الشأن فأظهر في تنظيم أعمال تلك المصلحة مقدرة عظيمة مكنته بعد مدة قصيرة من سد أبواب العجز في ميزانيتها ثم لم يلبث أن عكف على كهربة الخطوط الحديدية مبتدئاً بالخطوط الرئيسية فلم ينقض عليه وقت طويل حتى أصبح ثمانون في المئة من سكك الحديد تسير بالكهرباء في البلاد السويسرية فلما انتخب فخامته رئيساً للاتحاد السويسري أو بعبارة أوضح رئيساً للجمهورية السويسرية شق عليه أن يتخلى عن منصبه في إدارة مصلحة سكة الحديد ولم يكتم عن أصدقائه أن هذه المصلحة لا تزال في حاجة إلى بقائه على رأسها ليشرف على ترسيخ ما وضعه لها من الأنظمة المالية والأسس الفنية والعملية فاقترحوا عليه أن يتقلد منصب الرئاسة مع احتفاظه بإدارة سكة الحديد قائلين إنه و إن لم يكن في تاريخ رئاسة الاتحاد السويسري سابقة تسوغ هذا التصرف فإن الغرض الذي يقصده هو خدمة المصلحة العامة وهذه المصلحة تقدم على العرف والتقاليد وعلى كل اعتبار آخر فعمل بمشورتهم واحتفظ بالمنصبين

وفي أثناء شرب الشاي في الذهبية التي أقلت المدعوين في نزهتهم دار الحديث بين جلالة الملك والمسيو هاب على شؤون سكك الحديد في مصر وسويسرا فذكر المليك للرئيس طول الخطوط الحديدية المصرية الواسعة والضيقة وعدد محطاتها الكبيرة والصغيرة وعدد القطارات السريعة والعادية التي تسير عليها وعدد المركبات التي تتألف منها القطارات وعدد مركبات « بولمان » التي جلبتها مصلحة سكة الحديد المصرية ومتوسط عدد الركاب الذين يسافرون كل سنة في الدرجات الثلاث ونسبة أجور السفر الحالية إلى أجور قبل الحرب و إلى أجور سكة الحديد في أوربا ومتوسط إيراد مصلحة سكة الحديد من نقل الركاب والبضائع ثم انتقل جلالته من ذلك إلى الكلام عن نفقات سكة الحديد المصرية وما تم فيها من الإصلاحات في السنين الأخيرة وما ينتظر إنجازه قريباً من المشروعات الجديدة

وكان جلالته يسرد كل هذه المعلومات عن ظهر قلب بإفاضة و بلاغة عظيمتين أثارتا دهشة الحاضرين فأقبل علينا المسيو موتا رئيس الاتحاد السويسري السابق ووزير الخارجية السويسرية منذ سبع عشرة سنة وقال : « إن ملككم رجل ممتاز ومدهش حقيقة فانه بسط لنا ميزانية سكة الحديد في بلادكم كأنه كان يقرأ من كتاب أمامه » ثم دار الحديث على سكة الحديد في أوربا فتكلم عنها الملك طويلا معززاً كلامه بالمعلومات والبيانات الدقيقة مما زاد في دهشة حكام سويسرا واستغرابهم

ثم جاء دور الكلام عن الزراعة فحدثهم جلالة الملك عن القطن المصري وقابل بينه و بين أنواع القطن التي تزرع في السودان وأميركا ثم حدثهم عن زراعة الأرز في مصر وفي سائر البلدان التي تزرعه فقال لنا المسيو موتا : « اسمعوا . إن مليككم يعطينا درساً آخر في الشؤون الاقتصادية وهو في كل موضوع يعالجه يثبت أنه محيط به من جميع نواحيه . هذا شيء مدهش » وكان المسيو موتا وسائر زملائه كلما التقوا بواحد من مواطنيهم يعربون له عن شدة إعجابهم بسعة علم الملك فؤاد وتوقد ذهنه وقد كان بودنا أن نكون أثناء مصر كلهم حاضرين معنا حين سأل المسيو هاب جلالة الملك هل تهتم مصر بالحرير الاصطناعي فأجابه جلالته قائلا : « كلا . ولكني سمعت أخيراً أنه لا بد للحرير الاصطناعي الجيد من فتلة من القطن المصري لتزيده متانة ومن هنا يتضح لكم أن الغرب محتاج دائماً إلى معونة مصر » ونطق جلالته اسم مصر بحماسة وشغف شأنه في كل مرة كان يذكر فيها هذا الاسم وقد كان يردده في كل فرصة مناسبة في خلال رحلته

* * *

ولما اقيمت حفلة العرض العسكري في براغ عاصمة تشكوسلوفاكيا إكراماً

لجلالة الملك وقف جلالته في الكشك الملكي إلى يمين الرئيس ماساريك يعرض وحدات الجيش التشكوسلوفاكي وكان كلما وقع نظر جلالته على ضابط من الضباط الذين تولوا قيادة تلك الوحدات حياه التحية العسكرية برفع يده الكريمة إلى رأسه كما أن جلالته كان يحيي كل علم من الأعلام العسكرية التي كانت تمر أمامه تحية عسكرية طويلة فكان لهذه المجاملة الملكية أعظم وقع في نفوس الحاضرين من العسكريين . وكان جلالة الملك قد سأل قبل توجهه إلى مكان الحفلة عن ترجمة كلمة « سلام » في اللغة التشكوسلوفاكية فقيل له إنها «ناز دار» فلما وصل إلى ميدان العرض ترجل جلالته من المركبة وسار نحو سارية العلم التشكوسلوفاكي وحيا الجيش المصطف أمامه بصوت جهوري قائلا : «أيها الجيش التشكوسلوفاكي ناز دار . » فرد عليه أفراد الجيش كلهم قائلين «ناز دار» . ثم حيا جلالته علم الجيش التحية العسكرية وصعد إلى المكان الذي أعد له في الكشك الخاص

ولما مرت أمام جلالة الملك وحدات المدفعية في الجيش التشكوسلوفاكي أخذ جلالته يميل من وقت لآخر على الرئيس ماساريك ويسرد له المعلومات المسهبة عن المدافع التي يشاهدها ذاكراً قوة كل مدفع وقطر فوهته وزنة قنبلته ومدى مرماها وتأثير فعلها حتى أدهش الرئيس بوفرة معلوماته وقوة حافظته فلما أقيمت حفلة الاستقبال في دار البلدية بعد ظهر ذلك اليوم قال لنا الرئيس ماساريك « إن من يسمع جلالة الملك فؤاد يسرد المعلومات الفنية عن المدافع التي شاهدها اليوم صباحاً كما سمعته أنا يسردها لا يشك لحظة واحدة في أن جلالته غادر مدرسة المدفعية من أسبوع واحد . . . أجل . لقد أعطاني ملككم درساً عملياً مفيداً في المدفعية »

وكان الملك فؤاد في جميع زياراته شديد الرغبة في الإطلاع على كل جديد قد يفيد به مصر بعد عودته إليها أو قد ينفعه في تعزيز معارفه ومعلوماته

ومن ذلك أنه بينما كان يزور بعض مصانع مدينة «ايسن» الشهيرة سأل أحد المديرين الذين كانوا يرافقونه في طوافه عن مسألة متعلقة بالمعروضات التي دعي إلى مشاهدتها فرد عليه المدير بجواب غير مقنع . فأعاد جلالته الكرة وطرح عليه السؤال مرة اخرى فلم يعط الرجل جواباً وأراد الانتقال إلى موضوع آخر فاستمهله جلالته قائلا : « إنني لم أجىء إلى هنا لمجرد النزهة والفرجة فأكتفي بالنظر إلى المعروضات التي تعرضونها عليّ ولكني جئت خصيصاً لأتعلم وأستفيد لعلي أستطيع أن أخدم بلادي بعد ذلك بالمعلومات التي أكون قد جمعتها واستوعبتها في أثناء زيارتي »

وحدث لجلالته حادث آخر يكاد يماثل الحادث المتقدم في خلال زيارته لمطبعة « أولشتاين » في تمبلهوف ببرلين فإنه بعد ما طاف به مدير المطبعة أرجاء قسم الروتوغرافور كله وأفاض في بسط المعلومات والبيانات خاطب جلالته بقوله : « إنني ألتمس العفو يا صاحب الجلالة إذا كنت أطيل في الشرح والتفسير ولكنني أعتمد على رحابة . . » فقاطعه جلالته بقوله : « كلا بل يجب أن تعتمدوا على رغبتي في زيادة معلوماتي وما دامت هذه الرغبة تخالج نفسي ففي استطاعتكم أن تطيلوا الشرح والتفسير كما تشاءون لأنني إذا خرجت من هذه الزيارة بدون معلومات جديدة فثقوا أن تأثيرها في نفسي لا يبقى طويلا »

وفي أثناء زيارته لمصنع الخزف في برلين دنا منه أحد مديري المصنع ورجا من جلالته أن يبتعد قليلا عن طاولة أحد الصناع لئلا يصاب « برشاش » من العجينة التي أمامه فابتسم جلالته وقال : « بل إن اللذة هي في ذلك » . ثم أردف جلالته ما تقدم بقوله : « إن في لغتنا العربية مثلا يقول إنه لا بد دون الشهد من إبر النحل وإن المرء لا يجتني النفع ما لم يتحمل الضرر » ثم ابتسم جلالته مرة أخرى ومضى في طوافه ، وبعد ما فرغ من زيارته وصعد إلى سيارته

اقترب منه عامل لتصويره إلى أن أصبح على قيد خطوتين من السيارة فأسقط في يد رجال البوليس وهموا بإبعاد العامل المقدام عن مكانه ولكن جلالته منعهم عن ذلك بأن التفت إلى العامل وقال له وهو يبتسم : « صوِّر على مهلك » فقوبلت هذه اللفتة بأصوات الهتاف التي تعالت من كل جانب وظلت تتردد في الأفق إلى أن توارى موكب الملك عن الأبصار

ولما زار جلالة الملك مطار تمبلهوف ببرلين وتفرج على الطائرات الكبيرة التي تتولى نقل الركاب بين أرجاء أوربا أعرب عن رغبته في دخول طائرة منها ليتفرج على أجزائها من الداخل وهنا قال جلالته لمدير المطار : « إن من عادتي ألا أكتفي بالنظر إلى الأشياء نظرة خارجية إجمالية عامة قد لا تجدي نفعاً في معظم الأحيان » وبعد ما أصغى جلالته إلى جميع البيانات التي أفضى إليه بها مدير المطار سار إلى حيث علقت الخارطات الجغرافية المفصلة وطبق عليها عملياً ما استوعبته حافظته القوية من تلك المعلومات

ولما زار جلالته دار البلدية في برلين عرضوا عليه في خلال الحفلة التي أقيمت له فيها ترحيباً بزيارته أفلاماً سينماتوغرافية ناطقة كان لها أعظم وقع في نفس جلالته فقد كانت صناعة الأفلام الناطقة لا تزال في مرحلة التجربة الأولى ومما نورده بهذه المناسبة أن جلالته كان جالساً في تلك الحفلة في الصف الأول من صفوف الحاضرين يحيط به رجال معيته وكبار رجال البلدية فلما آن أوان عرض الأفلام الناطقة قال جلالته : « أظن أننا إذا أبدلنا مجالسنا ورجعنا إلى الوراء قليلا تحسنت رؤيتنا وكانت الفائدة أعظم » ثم نهض بكل بساطة ووداعة وسار إلى المقاعد الخلفية وجلس على مقعد منها بين المدعوين العاديين فكان لعمله هذا وقع حسن في نفوس جميع الحاضرين وكان بينهم عدد يذكر من كبار ولاة الأمور المحليين

ومن الذكريات التي لا أنساها عن رحلة الملك فؤاد في أوربا أنه بعد ما تفرج على حمامات العمال ومغاسلهم في دار « أولشتاين » للطباعة التفت إلى المغفور له الدكتور شاهين باشا وقال له بالعربية : « شاهين باشا . . . متى يكون لعمال مصر مثل هذا ؟ »

ومضى جلالته في طوافه . . .

وكذلك كان دائم التفكير في رفاهية شعبه في كل وقت ولا هم له إلا كيف يسير بمصر إلى الأمام

* * *

ولو أردت أن أجمع هنا ما سمعته من ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها عن إعجابهم بعظمة الملك فؤاد لما اتسع لذلك المجال وقد سجلت أقوالهم في حينه عند نشر أحاديثهم وأوردت بعضها في الكتيب الذي طبعته في أواخر سنة ١٩٢٩ عن جلالته ووصفت فيه رحلته إلى أوربا في تلك السنة

ولكني سأتكلم هنا عن حادث واحد أعتقد أنه يصف المقام الذي أنشأته شخصية الملك فؤاد لمصر في أوربا بما يغني عن كل وصف آخر

ففي صيف سنة ١٩٣٣ زرت بروكسل عاصمة البلجيك ولما قابلت المسيو هيمانس وكان يومئذ وزيراً للخارجية سألتُ هل يمكنني أن أتشرف بمقابلة جلالة الملك البرت فقيل لي إن عيد البلجيك الوطني يبدأ بعد يومين وان من عادة البلجيكيين أن يحتفلوا به ثلاثة أيام تقام في خلالها حفلات قومية كثيرة يشهد الملك بعضها قبل الظهر وبعد الظهر ولذلك فإنه لا يقابل أحداً في تلك الأيام الثلاثة فإذا انتهت سافر إلى « اوستند » ليقضي فيها أياماً على شاطىء البحر

قالوا : ومع ذلك سنعرض الأمر على جلالته

وفي الغد اتصل بي مدير البروتوكول بالتليفون وقال إنهم ما كادوا يكاشفون الملك برغبتي حتى قال إنه و إن يكن مشغولاً باحتفالات العيد الوطني لا يسعه أن يضن بالمقابلة على صحافي قادم « من بلاد الملك فؤاد » وعين لمقابلتي موعداً خاصاً فى صباح اليوم الثاني من أيام العيد

وفي الموعد المعين كان المرحوم الأستاذ هنري سميكة القائم بأعمال المفوضية المصرية في بروكسل إذ ذاك يقدمني لجلالته في مكتبه في القصر الملكي

وجاء في سياق الحديث ذكر الملك فؤاد فقال الملك البرت : « دعوني أغتنم هذه الفرصة لأقول لكم إنني شديد الإعجاب بملككم العظيم . . إنه ملك عالمي[1] »

* * *

وما الذي كان يدهشهم في الملك فؤاد بصفة خاصة ؟

سعة اطلاعه وكثرة معارفه وتنوع معلوماته

ومما كان يزيدهم احتراماً له أنه كان ككل عظيم لايدعي معرفة كل شيء ولا يقنع بما يعرفه بل ما برح يطلب المزيد من العلم والعرفان

أتيح لي وخصوصاً في أوربا أن أسمع جلالته في مناسبات كثيرة يتكلم في موضوعات شتى فكان في كل مرة يبهر سامعيه بحديثه على نحو ما رأيناه في صفحة متقدمة

ولكني أذكر مناسبة منها بالذات بدا فيها جلالته كأنه جالس إلى مكتبه وأمامه « دائرة معارف » يختار منها الموضوعات ويخوض في الحديث عنها تباعاً

كان ذلك في دار المفوضية المصرية فى برلين في حفلة استقبال أقامها سعادة

---

(١) والعبارة التى قالها جلالة الملك البرت بالفرنسية هى :

"C'est un Roi International".

حسن نشأت باشا — وزير مصر المفوض في المانيا في ذلك الحين — لرجال السلك السياسي والجمهور من العظماء والكبراء بمناسبة زيارة جلالته

وكان نشأت باشا يقدم له كبار الحاضرين واحداً بعد الآخر مبتدئاً بسفراء الدول وفي مقدمتهم الكردينال باتشيلي (وهو قداسة البابا الحالي وكان يومئذ يمثل البابا السابق فى برلين) فيحادث جلالته كل واحد منهم دقائق ثم ينتقل إلى غيره

رأيته يفعل ذلك ساعتين وهو واقف في مكان واحد لا تبدو عليه أمارة واحدة من أمارات التعب

وفي أثناء تينك الساعتين غيَّر موضوعات حديثه عشرات من المرات إذ كان يحادث كل واحد في الأمور التي تهمه أو تتصل بطبيعة عمله وكان الكردينال باتشيلي يتتبع أحاديثه عن كثب وهو لا يرفع نظره عنه فقال لي بعد ذلك : « إن ملككم مدهش حقيقة فما أكثر ما يعرف وما أقدره على التحدث بما يعرف »

ولما انتهت الساعتان نزل إلى حديقة الدار وطاف بموائد سائر المدعوين وكان يقف عند كل مائدة قليلا

ومن اليوم الذي ابتدأت فيه الرحلة إلى اليوم الذى انتهت فيه لم يتأخر جلالته دقيقة واحدة عن موعد زيارة أو مأدبة أو حفلة

وفي اليوم الذي كان مدعواً فيه إلى قضاء النهار بعيداً عن « برن » كان مقرراً أن يصل الركاب الملكي إلى محطة سكة الحديد الساعة السابعة صباحاً ليركب جلالته القطار الخاص إلى مكان الزيارة

وكان جلالتـه قد قضى جانباً من الليل في السهرة التي عقبت إحدى المآدب الرسمية

فوقفنا في المحطة نسأل أنفسنا هل يجيء الملك في الساعة السابعة تماماً في هذا الجو البارد وكان أصغرنا سناً يشكو من عدم كفاية الساعات التي قضاها نائماً بعد برنامج اليوم السابق المرهق

وقبل أن تدق ساعة المحطة الدقات السبع كان جلالته يترجل من سيارته ووجهه يطفح بشراً فيصافح مستقبليه ثم يتجه إلى صالونه في القطار الخاص بينما كانت الساعة تدق آخر دقة من الدقات السبع . . .

واستغرقت الرحلة بالقطار أكثر من ساعتين قضاهما جلالته في حديث مع رئيس الاتحاد السويسري وكبار رجال الحكومة السويسرية

وكان كبار رجال الحاشية يتسللون في تلك الأثناء إلى الديوان المجاور للصالون الملكي ليتمتعوا بغفوة سريعة أو ليجددوا نشاطهم براحة قصيرة

أما هو فكان الرجل الذي لا يكل ولا يمل وكان كمن يبدأ الرحلة في يومها الأول مع أن الرحلة كانت قد قاربت على النهاية

ولكنه كان يعيش على أعصابه ليبني لمصر الحديثة المكانة اللائقة بها في الغرب وقد فاز بذلك فكان بلا مشاحة أعظم سفير لمصر في الخارج